السَّنةُ الثانيةُ والثمانون بعد المئة

فيها أخذ هارونُ البيعةَ لابنه المأمونِ بعد الأمين، وأَقطعه خُراسانَ، وضمَّه إلى جعفرِ بن يحيى. وبايعه بنوهاشم: موسى بن عيسى، وجعفرُ بن المنصور، وعبدُ الملكِ ابن صالح، وغيرُهم.

وقدم الشافعيُّ رحمةُ الله عليه بغداد، فوافق عقدَ الرشيد البيعةَ لابنه المأمونِ بعد الأمين، وجلس الناسُ في دار العامَّة ينتظرون الإذن، وقالوا: كيف ندعو لهما؟! إنْ دعونا لهما بالبقاء كان دعاءً على أبيهما، وإن سكتنا كان تقصيراً، فأُذن للناس، فقام الشافعيُّ رحمةُ الله عليه فقال: [من الكامل]

لا قَصَّرا عنها ولا بَلَغَتْهما حتى يطولَ على يديك طِوالُها[1]

وغزا الصَّائفةَ عبدُ الرَّحمن بن عبد الملك فبلغ أُفْسوسَ[2] مدينةَ دقيانوس ومكانَ الكهف، وكان قُسطنطين بن أليون ملكُ الروم قد بدا منه جَوْرٌ وفساد، فسَمَلَتْه الروم[3]، وملَّكت أمَّه، واسمُها رينى[4]، وقدم يحيى بنُ خالد من مكةَ إلى الرقَّة.

وفيها: حُملت ابنة خاقان ملكِ الخَزَر إلى الفضل بنِ يحيى وهو بخُراسان، فماتت ببَرْذَعَة، وكان على إرْمِينِية سعيدُ بن سَلْم بن قُتيبةَ الباهليّ، وأُخبر ملكُ الخزر أنَّ ابنته قُتلت غِيلة، فاستعدَّ لحرب المسلمين.

---

(١) ذِكْر الشافعي في هذا الخبر وهمٌ تابع فيه المصنفُ جدَّه، إذ أورده في المنتظم ٩/ ٦٦ـ٦٧، والأذكياء ١٠٢، وقد ذكر خبر أخذ هارون البيعة لابنه: الطبري ٨/ ٢٦٩، وابن الأثير ٦/ ١٦١، والذهبي ٤/ ٧٨٠، وابن كثير ١٣/ ٦١٤ ولم يذكروا قدوم الشافعي، بل إن ابن كثير نصَّ في تاريخه ١٣/ ٦٢٠ على أن الشافعي إنما قدم بغداد في أول قدمة قدمها إليها في سنة أربع وثمانين

والبيت الذي نُسب إلى الشافعي هو لطُريح بن إسماعيل تمثل به عبد الله بن مصعب بن ثابت لما بايع الرشيد لولده، وانظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٦٤، والمنتظم ٩/ ٩٧.

(٢) في (خ): أقسوس، وفي تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٩: دفسوس، والمثبت من معجم البلدان ١/ ٢٣١، والمنتظم ٩/ ٦٧، والكامل ٦/ ١٦١.

(٣) سمل العين: فقأها بحديدة محماة. مختار الصحاح (سمل).

(٤) في (خ): دنيا، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٩، والكامل ٦/ ١٦١، والبداية والنهاية ١٣/ ٦١٤.

وحجَّ بالناس موسى بنُ عيسى بن موسى بنِ محمَّد بن عليّ.

فصل وفيها توفي

عامر بن عُمارة

ابن خُرَيْم الناعم، أبو الهَيْذام، من بني مُرَّة[١].

كان زعيم قيسٍ في الفتنة التي وقعت بين قيس واليمانيةِ وأطفأها جعفرُ بن يحيى بنِ خالد، وله فيها أشعارٌ كثيرة.

قال المَرزُباني: نزل أبو الهيذام الشاميُّ سِجِستان، فقتل عاملٌ لهارونَ بها أخاً لأبي الهَيْذام، فحزن عليه حُزناً كثيراً، وقال فيه الأَشعار، فمن ذلك: [من الطويل]

سأبكيكَ بالبِيضِ الرِّقاق وبالقَنا ... فإنَّ بها ما يُدرِكُ الطَّالبُ الوِتْرا
ولسنا كمَنْ يبكي أخاه بعَبْرَةٍ ... يُعَصِّرُها من ماء مُقْلَتِه عَصْرا
وإنَّا أُناسٌ ما تَفيض دموعُنا ... على هالكٍ منَّا وإنْ قَصَم الظَّهرا
ولكنَّنا نشفي الفؤادَ بغارةٍ ... تُلَهِّبُ في قُطْرَي كتائبها جَمْرا[٢]

ثم قوي أمرُ أبي الهيذام، واشتدَّت شوكتُه، وضَرَّب بين القيسية واليمانية، فأَعيت على هارونَ الحيلُ فيه، فاحتال عليه بأخٍ له وأرغبه، فاغتاله وقيَّده، وبعث به إلى هارونَ وهو بالرقَّة، فلمَّا دخل عليه قال: [من الطويل]

وأَحسِنْ أميرَ المؤمنين فإنَّه ... أبى اللهُ إلَّا أن يكونَ لك الفضلُ[٣]

فأطلقه وأَحسن إليه ومَنَّ عليه.

وقال المدائنيّ: كان سببُ هذه الفتنة أنَّ رجلاً من بَلْقَيْن مرَّ على مَبطَخةٍ بالبَلْقاء، فأخذ منها بِطِّيخة، فنهاه صاحبها، فشتمه، وكانت لرجل من جُذام، فقام إليه الجُذاميُّ فقتله،

---

(١) تاريخ دمشق (عاصم ـ عائذ) ٣٩٣، وتاريخ الإسلام ٤/ ١٠٢٠.

(٢) تاريخ دمشق ٣٩٤، تاريخ الإسلام ٤/ ١٠٢١، الأمالي ١/ ٢٦٧، زهر الآداب ٢/ ١٠١٠، الحماسة البصرية ١/ ٢٣٩، معاهد التنصيص ١/ ٢٥١. ونسب المرزباني في معجمه ص١٨٠ الأبيات للفضل بن عبد الصَّمد الرقاشي.

(٣) في (خ): يكون المفضل، والمثبت من تاريخ دمشق ٣٩٤، وتاريخ الإسلام ٤/ ١٠٢١، وسمط اللآلي ١/ ٥٩٣، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٥١.

فهاجَت الحربُ سنين بين القيسية واليمانية، قُتل من الفريقين خلقٌ عظيم، وكانت الحربُ بالبَلقاء والرُّبَّة والبَثَنِيَّة[١]، وتَعَدَّوا إلى الغوطة، فأحرقوا ضِياعها، منها داريًّا، فكان رأسَ الفتنة أبو الهيذام، ثم اصطلحوا على يد جعفر.

ومن شعر أبي الهَيْذام: [من البسيط]

لـمَّـا رأيـت حُـمـاةَ الـقـوم قـد وَكَـفـوا[٢] وقـدَّمـوا رايـتَـي عَـنْـسٍ وخَـوْلانـا[٣]
وجـالـت الـخـيـلُ أم كـادت تـجـول بـنـا نـاديـتُ مُـسْـتَـنْـجِـداً يـا قـيـسَ عَـيـلانـا
فـبـات جَـمْـعُـهـمُ حـولـي كـأنـهـمُ غُـلْـبُ الأُسـود الـتـي تـعـدو بـخَـفَّـانـا[٤]
وقـلـت لا يَـغْـلِـبَـنْـكـمْ مَـعْـشـرٌ قُـزُمٌ صُـفـرُ الـوجـوه بـنـو الـشَّـيـطـان قـحـطـانـا
فـجـالِـدوهـم بـأسـيـافٍ مـصـفَّـحـةٍ وِراثـةً عـن أبـيـنـا الـشـيـخِ عَـدنـانـا

ومات أبو الهَيذامِ في هذه السَّنة.

عبدُ الله بن عبد العزيز

ابن عبدِ الله بن عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، أبو عبد الرَّحمن العُمَرِيّ[٥].

من الطبقة السَّابعة من أهل المدينة، وأمُّه أَمَة الحميد بنتُ عبد الله بنِ عياض من الأَوس.

كان عبدُ الله ناسكاً عالماً عابداً، تعبَّد وسكن المقابر، وكان لا يُرى إلَّا وفي يده كتابٌ يقرؤه، وترك مجالسةَ الناس، فقيل له في ذلك، فقال: لم أرَ أوعظَ من قبر، ولا آنسَ من كتاب، ولا أسلمَ من الوَحْدة، فقيل له: قد جاء في الوحدة ما جاء، فقال: لا

(١) الرُّبَّة: قرية في طرف الغور بين أرض الأردن والبلقاء، والبثنية: اسم ناحية من نواحي دمشق، وقيل: هي قرية بين دمشق وأذْرِعات. معجم البلدان، وقد اختصر المصنف هذا الخبر جداً، وانظره بتمامه في تاريخ دمشق ٣٩٥ـ٤١٥.

(٢) في تاريخ دمشق ٤١٩: دلفوا.

(٣) في (خ): عبس وذبيانا، وهو خطأ، والمثبت من تاريخ دمشق.

(٤) خفان، كعفان: مأسدة قرب الكوفة. القاموس المحيط (خفف).

(٥) طبقات ابن سعد ٧/ ٦١٣، المعارف ١٨٦، حلية الأولياء ٨/ ٢٨٣، صفة الصفوة ٢/ ١٨١، المنتظم ٩/ ٩٨، التبيين ٤١١، تهذيب الكمال (٣٣٨٣)، السير ٨/ ٣٧٣، تاريخ الإسلام ٤/ ٨٧٧.

تُفسد إلَّا جاهلاً.

وكان من الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر؛ قال: إنَّ من غفلتك عن نفسك إعراضَك عن الله، بأن ترى ما يُسخِطُه فتُجاوزَه، ولا تأمرَ ولا تنهى خوفاً ممَّن لا يملك لك ضرّاً ولا نفعاً، ومَن ترك الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر مخافةَ المخلوقين، نُزعت منه هيبةُ الله، فلو أمر ولدَه أو بعض مواليه بأمرٍ لاستخفَّ به.

وقال سعيد بن سليمان: كنت بمكَّة وإلى جانبي عبدُ الله بن عبد العزيز العُمريّ، وقد حجَّ هارون، فقال له إنسان: هذا أميرُ المؤمنين يسعى وقد أُخلي له السَّعْيُ[1]، فقال العمريُّ: لا جزاك اللهُ عني خيراً، كلَّفتَني أمراً كنت عنه غنيّاً. ثم علَّق نعليه وقام، فتبعتُه، وأقبل هارونُ من المروة يريد الصَّفا، فلمَّا نظر إليه صاح: يا هارون، فقال: لبَّيك يا عم، قال: اِرقَ الصفا، فلمَّا رَقِيَه قال: اِرمِ بطَرْفِك إلى البيت، فقال: قد فعلتُ، قال: كم هم؟ قال: ومَن يُحصيهم؟ قال: فكم في الناس مثلُهم؟ قال: خلق لا يُحصيهم إلَّا اللهُ تعالى، فقال: اِعلم أيها الرجل أنَّ كلَّ واحد منهم يُسأل عن خاصَّة نفسه، وأنت تُسأل عن كلِّ واحدٍ منهم، هؤلاء كلُّهم خُصماؤك يومَ القيامة، فانظر أيَّ رجل تكون. فبكى هارونُ وجلس، وجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدُّموع.

قال: وأخرى أقولها لك، قال: قل يا عمِّ، قال: إنَّ الرجل لَيُسرع في ماله فيستحقُّ الحَجْرَ عليه، فكيف بمن أَسرع في مال المسلمين؟ وهارونُ يبكي، وهو يقول له: يا هارون، فعلتَ وفعلت، فقال له: فماذا تريد؟ قال: تفعلُ كذا وكذا، فقال له هارون: نَعَم يا عمّ، نعم يا عم. فكان هارونُ يقول: إنِّي لأُحبُّ أن أحجَّ في كلِّ سنة، ما يمنعني إلاَّ رجل من ولد عمر رضي الله عنه ثَمَّ يُسمعني ما أكره.

وذكر الطبريُّ أنَّ الرشيد أرسل إليه كيساً فيه ألفُ دينار[2] مع الأمينِ والمأمون، فاعترضاه بمكَّة وقالا: يا عمّ، أميرُ المؤمنين يقول لك: خذها وانتفع بها أو فرِّقها[3]، فقال: هو أعلمُ بمَن يفرِّقها لهم. ثم أخذ من الكيس ديناراً واحداً وقال: كرهتُ أن

(١) في المنتظم ٩/ ٩٩، وصفة الصفوة ٢/ ١٨٢: المسعى، وهو الأشبه.

(٢) في تاريخ الطبري ٨/ ٣٥٨: ألفا دينار.

(٣) في (خ): وفرقها.

أجمعَ على هارونَ سوءَ القول وسوءَ الفعل.

ثم إنَّ العُمريَّ بعد ذلك خرج إلى هارونَ ليَعِظَه، فلما نزل الكوفةَ رجف العسكر، حتى لو كان نزل بهم مئةُ ألفٍ من العدوِّ ما زادوا على هَيبته، ثم رجع ولم يَصِل إليه.

وقال الطبري: وبلغ الرشيدَ، فجمع العُمَريّين وقال: مالي ولابن عمِّكم؟! احتملتُه بالحجاز فشَخَص إلى دار مُلكي يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي، ردُّوه عني، قالوا: ما يَقبل. فكتب إلى الكوفة إلى موسى بنِ عيسى أن يردُّوه برفقٍ، فدعا موسى ببُنيٍّ له صغيرٍ عشرِ سنين قد حفظ الخطبَ والمواعظ، فذكر ما لم يسمع العمريُّ بمثله، فأخذ نعلَيه وقام وهو يقول: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾[1] [الملك: ١١].

وقال الطبريّ: قال الرشيد: واللهِ ما أدري ما آمرُ في أمر هذا العُمَريّ، أكره أن أقدَمَ عليه وله خَلَفٌ أكرههم، وإنِّي لأحبُّ أن أعرفَ طريقته ومذهبه، وما أثق بأحدٍ أبعثه إليه، فقال له عمرُ بن بَزيع والفضل بن الرَّبيع: فنحن، قال: فأنتما. وكانوا بطريق مكَّة، وكان العمريُّ يسكن بالبادية بخَلْص[2]، فأتيا إليه في زِيّ الملوك والطِّيبُ يفوح من ثيابهم، وإذا به في مسجد، فدخلا عليه وسلَّما، وقالا: يا أبا عبدِ الرَّحمن، نحن رسلُ مَن خلفنا من أهل المشرق، يقولون لك: اِتَّقِ اللهَ ربَّك، وإذا شئتَ فقم.

فأَقبل عليهما وقال: ويحكما[3]، واللهِ ما أحبُّ أن ألقى الله بمَحْجَمَةِ دمِ امرئٍ مسلم وأنَّ لي ما طلعت عليه الشمس. فلمَّا يئسا منه قالا: إنَّ معنا شيئاً تستعين به على دهرك، فقال: لا حاجةَ لي فيه، أنا في غنًى عنه، فقالا: إنَّها عشرون ألفَ دينار، قال: لا حاجةَ لي فيها، قالا[4]: فأَعطِها مَن رأيت، فقال: اِفعلا ذلك أنتما، فما أنا بخادمٍ ولا عَوْن. فلمَّا يئسا منه عادا إلى هارونَ فأخبراه، فقال: ما أبالي ما أَصنع بعد هذا.

وقال العمريُّ عند موته: بنعمة ربِّي أحدِّث، إنِّي أصبحتُ لا أملك سوى أربعةٍ أو

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٥٨.

(٢) في (خ): خليص، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٥٤، وخَلْص: موضع بآرة بين مكة والمدينة، واد فيه قرى ونخل. معجم البلدان.

(٣) في (خ): ويحك.

(٤) في (خ): قال.

سبعة دراهم من لِحاء شَجَرٍ فَتَلْتُه بيدي، ولو أنَّ الدنيا أصبحت تحت قدمَيَّ لا يمنعني عن أخذها إلَّا أن أُزيل قدميَّ عنها ما أزلتُهما.

وقال له رجل: عِظْني، فأخذ حصاةً من الأرض وقال: زِنَةُ هذه من الوَرَع تدخل قلبَك خيرٌ لك من صلاة أهل الأرض، قال: زدني، قال: كما تحبُّ أن يكونَ اللهُ لك غداً فكن له اليوم. وكان يأكل من فتل الشَّريط بيده.

ومات في هذه السَّنة، وقيل: مات بالمدينة سنةَ أربعٍ وثمانين ومئةٍ[1] وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة.

أَسند الحديثَ عن أبيه وإبراهيمَ بن سعد وغيرِهما، وأدرك خلقاً من التابعين، وكان سيِّداً لم يكن في عصره مثلُه رحمةُ الله عليه.

مروانُ بن سليمان

ابن يحيى بنِ أبي حَفْصَة، أبو السِّمْط، وقيل: أبو الهَيذام، الشاعر[2].

كان أبو حفصةَ مولى مروانَ بن الحكم، أعتقه يومَ الدار لأنَّه أبلى بلاءً حسناً في ذلك اليوم. ويقال: إنَّ أبا حفصةَ كان يهوديًّا أسلم على يد مروان، وقيل: على يد عثمان، ويُزْعَم أنَّه من موالي السَّمَوْءَل [بن] عادياء اليهودي، وقيل: إنَّه سُبي من إِصْطخر وهو غلام، فاشتراه عثمانُ ووهبه لمروان، فأَعتقه.

وُلد مروانُ في سنة خمسٍ ومئة، وفد على الوليد بن يزيدَ ومدحه، وكان شاعراً مُجيداً، مدح خلفاءَ بني أميَّة وغيرهم، ومن مديحه في الوليد بن يزيدَ وأهله: [من الخفيف]

إنَّ بالشام بالمُوَقَّر عِزًّا ... وملوكاً مباركينَ شهودا

سادةٌ من بني يزيدَ كراماً ... سبقوا الناس مَكرُماتٍ وجُودا

هانَ يا ناقتي عليَّ فسيري ... أن تموتي إذا لقيتِ الوليدا

(١) أجمعت مصادر ترجمته على هذا القول، ولم أقف على مَن قال بالأول غير المصنف.

(٢) الشعر والشعراء ٢/ ٧٦٣، والأغاني ١٠/ ٧١، ومعجم الشعراء ٣١٧، وطبقات الشعراء ٤٢، وتاريخ بغداد ١٥/ ١٨٢، وتاريخ دمشق ٦٦/ ٤٧٩، والمنتظم ٩/ ٦٩، والسير ٨/ ٤٧٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٧٠.

وكان مروانُ قد قدم بغدادَ ومدح المهديَّ وهارون، وكان يتقرَّب إلى هارونَ بهجو العَلَويَّة، وقد مدح مَعْنَ بن زائدةَ ورثاه بقصائد، ودخل على المهديِّ ولم يعرفْه، فمدحه، فقال: مَن أنت؟ فقال: شاعرُك مروان بن أبي حفصة، فقال: أَلست القائل:

أَقمْنا باليمامة بعد مَعْنٍ ... مُقاماً لا نُريد به زِيالا
وقلنا أين نذهبُ بعد معنٍ ... وقد ذهب النَّوالُ فلا نَوالا

وإذا ذهب النَّوال، فأيَّ شيءٍ جئتَ تطلب عندنا؟ جُرُّوا برجله، فجرُّوا برجله وأُخرج، فلمَّا كان في العام المقبل تلطَّف حتى دخل مع الشُّعراء، فلمَّا مَثُل بين يديه أنشده قصيدَته التي يقول في أوَّلها: [من الكامل]

طَرَقَتْك زائرةً فحيِّ خَيالَها ... بيضاءُ تَخلِطُ بالحَياءِ دَلالَها
هل تَطْمِسونَ من السماء نجومَها ... بأكفِّكم أو تَسْترون هِلالَها
أو تدفعون مقالةً من ربِّكمْ ... جبريلُ أَبلغها الرسولَ فقالها
شَهِدَت من الأنفال أولَ[1] آيةٍ ... بتراثهمْ فأردتمُ إبطالها

فزحف المهديُّ من مصلَّاه حتى صار على البِساط إعجاباً بما سمع، ثم قال: كم الأبيات؟ قال: مئة، فأمر له بمئة ألفِ درهم، وهي أوَّل مئة ألف أُعطيت لشاعر في أيَّام بني العبَّاس، فلمَّا ولي هارونُ الرشيد دخل عليه مروانُ، فقال: ألستَ القائلَ في معن..؟ وذكر البيتين، وأخرجه. ودخل عليه بعد ذلك فأنشده قصيدة، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً، فمنها: [من الطويل]

لَعَمرُك لا أنسى غداةَ المُحَصَّبِ ... إشارةَ سلمى بالبَنان المُخَضَّبَ
وقد صدر الحُجَّاج إلَّا أقلَّهمْ ... مصادرَ شتَّى مَوْكِباً بعد موكب

قال المصنِّف رحمه الله: وأوَّل القصيدةِ التي رثى بها معنَ بن زائدة: [من الوافر]

مضى لسبيله مَعْنٌ وأبقى ... محامدَ لن تَبيدَ ولن تُنالا
كأنَّ الشمسَ يوم أُصيبَ معنٌ ... من الإظلام مُلْبَسةٌ جِلالا

(١) في الأغاني ١٠/ ٨٧، وتاريخ بغداد ١٥/ ١٨٤، وتاريخ دمشق ٦٦/ ٤٨٣، والمنتظم ٩/ ٧٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٧١: آخر آية، وهو الصحيح.

هوى الجبلُ[١] الذي كانت نزارٌ ... تَهُدُّ من العدوِّ به الجبالا
وكان الناس كلُّهمُ لمعنٍ ... إلى أن زار حفرتَه عِيالا
ولم يكُ طالبُ المعروف ينوي ... إلى غير ابنِ زائدةَ ارتحالا
وما نزل الوفودُ بمثل معنٍ ... ولا حَطُّوا بساحته رِحالا
مضى لسبيله مَن كنتُ أرجو ... به عَثَرات دَهْري أن تُقالا
فلستُ بمالكٍ عَبَراتِ عيني ... أَبتْ بدموعها إلَّا انْهِمالا
وفي الأحشاءِ منك عليك[٢] حُزنٌ ... كحرِّ النَّار يَشتَعِلُ اشتعالا

من أبيات.

وقال لمَّا ولدت زبيدةُ محمَّداً الأمين: [من الكامل]

لله درُّكِ يا عَقيلَةَ جعفرٍ ... ماذا وَلَدتِ من النَّدى والسُّؤدَدِ
إنَّ الخلافة قد تبيَّن نورُها ... للنَّاظرين على جَبينِ محمَّد
إني لَأَعلم أنَّه لَخليفةٌ ... إنْ بَيعةٌ عُقِدت وإنْ لم تُعقَد[٣]

فأعطاه هارونُ مئةَ ألفِ درهم، وحَشَت زبيدةُ فاه جوهراً قيمتُه مئةُ ألفِ درهم.

وقال[٤]: [من الطويل]

ما بال مَن أسعى لأجْبُرَ عَظْمَه ... جِفاظاً ويَنوي من سَفاهته كَسري
أعود على ذي الذَّنب والجهل منهمُ ... بِحلمي ولو عاقبتُ غرَّقهم بَحري
أناةً وحِلماً وانتظاراً بكمْ غداً ... فما أنا بالواني ولا الضَّرَعِ الغُمْر[٥]
أظنُّ صروفَ الدَّهر والجهل منهمُ ... ستحملهم منِّي على مَرْكبٍ وَعْر

(١) في تاريخ بغداد ١٥/ ٣٢٣، وطبقات الشعراء ٥٢، وتاريخ دمشق ٦٦/ ٤٩١: هو الجبل. والمثبت موافق لمعجم الشعراء ٣١٨.

(٢) كذا في (خ) وثلاث نسخ من تاريخ دمشق ٦٦/ ٤٩٣ أشارت إليها محققته رحمها الله، وفي تاريخ بغداد ١٥/ ٣٢٤، ومطبوع تاريخ دمشق: غليل، وهي الأجود والأعلى، والغليل: الحرارة.

(٣) الأوائل للعسكري ١/ ٢٨٧، والعقد الفريد ١/ ٣١٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣١٥.

(٤) الأبيات الآتية رواها مروان وأنشدها عن ابن الذئبة الثقفي، وليست لمروان، كما في مجالس ثعلب ١٤٤، وتاريخ دمشق ٦٦/ ٤٨٠، ونسبت إلى غيره، انظر حاشية محقق مجالس ثعلب.

(٥) الضرع: الصغير من كل شيء، أو الصغير السن الضعيف. والغُمر: الرجل الذي لم يجرب الأمور.

ألم تعلموا أني تُخافُ عَزائمي وأنَّ قناتي لا تَلين على القَسْر
وإنِّي وإيَّاهم كمَن نبَّه القَطا ولو لم تُنبَّه باتت الطيرُ لا تَسري

ولم يكن لمروانَ علمٌ بالعربية، وكان مولَّداً، وقال الشعرَ وهو ابنُ عشرين سنة، وكان بخيلاً ساقطَ النفس، خرج يوماً من عند المهديِّ ومعه ثمانون ألفَ درهم، فمرَّ بفقير زَمِن، فسأله، فأعطاه ثلثَي درهم، فقيل له: هلَّا أعطيتَه درهماً؟! فقال: لو أُعطيت مئةَ ألفٍ لأَتممتُ له درهماً.

وكان لا يأكل اللحمَ بُخْلاً، فإذا قَرِمَ أرسل غلامَه فاشترى له رأساً فأكله، فقيل له في ذلك، فقال: أعرف سِعْرَه، وليس بلحمٍ يطبخه الغلام فيأكلُ منه، ثم إنَّني آكل منه ألواناً: عينَيه لوناً، وأُذنيه لوناً، ولحمَ خدَّيه لوناً، ولسانَه لوناً، ودماغَه لوناً، وأُكفى مؤونةَ طبخه، فقد اجتمعت لي فيه مرافق.

وخرج يوماً يريد المهديّ، فقالت له امرأتُه: مالي عليك إنْ رجعتَ بجائزة؟ فقال: إنْ أعطاني مئةَ ألفِ درهم، أعطيتُك درهماً. فأعطاه ستِّين ألفاً، فدفع إليها أربعةَ دوانق.

وكانت وفاة مروانَ ببغداد، ودُفن في مقبرة عبدِ الله بن مالك[1].

هُشَيم بن بَشير

ابن أبي خازم القاسم بن دينار، أبو معاويةَ الواسطي، مولى بني سُليم، وهو بخاريُّ الأصل. وكان ثقةً كثير الحديث ثَبْتاً، يُدَلِّس كثيراً.

وكان أبوه سُوقيّاً صاحبَ صَحْناةٍ وكَواميخ[2]، فطلب ابنه الحديث، فكان أبوه ينهاه، فجالس أبا شَيبةَ القاضي، وكان يُناظره في الفقه، ومرض هشيم، فقال أبو شيبةَ: ما فعل ذلك الغلام؟ قالوا: مريض. فجاء القاضي ومعه أهلُ المجلس يعودونه، فقيل لبشير ويدُه في الصَّحناة والكامَخ: اِلحق ابنَك فقد جاء القاضي يَعودُه، فجاء فقال: يا بنيّ، قد كنتُ أمنعك من طلب الحديث، أمَّا إذا جاء القاضي إلى بابي، لا

(١) في معجم الشعراء ص٣١٨، وتاريخ بغداد ١٥/ ١٨٦، وتاريخ دمشق ٦٦/ ٤٩٤، والمنتظم ٩/ ٧١، ووفيات الأعيان ٥/ ١٩٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٦١٥: نصر بن مالك.

(٢) الصحناة: إدام يتخذ من السمك الصغار، والكامَخ: نوع من الإدام. القاموس المحيط (صحن) (كمخ).

أمنعك، متى طلبتُ أنَّ القاضي يجيء إلى بابي!!

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله: لزمتُ هشيماً خمسَ سنين، فما سألته عن شيءٍ هيبةً له، إلَّا مرتين، وكان هُشيمٌ يُكثر التسبيحَ بين الحديث ويقول: لا إله إلَّا الله، يمدُّ بها صوتَه. وأقام يصلِّي الفجرَ بوضوء العشاءِ الآخرةِ مدَّة سنين.

وتوفِّي ببغدادَ يومَ الأربعاءِ لعشرٍ مَضَين من رمضانَ أو شعبان، سنةَ اثنتين وثمانين ومئة[١].

وأَسند عن كبار الأئمَّة، كعَمرو بن دينارٍ وغيرِه.

وروى عنه مالكُ بن أنسٍ والثوريُّ والإمام أحمدُ بن حنبل وابنُ المبارك وخلقٌ كثير من التابعين.

وكان ثقةً صدوقاً، لم يُعَب بشيء إلَّا بالتدليس.

القاضي أبو يوسفَ

يعقوبُ بن إبراهيم [بنِ حبيب[٢]] بن سعد بن بَحير[٣] بن معاويةَ الجُشَمي[٤]. وسعد ابن بَحير من الصحابة، أُتي به يومَ الخندق إلى النبيِّ ﷺ، فدعا له ومسح على رأسه، فتلك المَسْحةُ في أبي يوسفَ وولدِهِ إلى الآن.

وكان يحضر الحديثَ فيحفظ خمساً وستِّين حديثاً، ويقوم فيُمليها على الناس، ثم لزم أبا حنيفةَ وتفقَّه عليه، وغلب عليه الرأيُ، فجفا أصحابَ الحديث.

وكان يحفظ التفاسيرَ والفقهَ والأحاديثَ وأيَّام العرب والسِّيَر.

وكان وِرده في كلِّ يومٍ وليلة مئتَي ركعة. وهو أوَّل مَن دُعي بقاضي القضاةِ في الإسلام.

---

(١) الذي في المصادر أنه توفي لعشر مضين من شعبان سنة ١٨٣، انظر تاريخ بغداد ١٦/ ١٤٣، والمنتظم ٩/ ٩٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٩٤، والسير ٨/ ٢٨٧ والمصادر فيه.

(٢) زيادة من المصادر، انظر طبقات ابن سعد ٩/ ٣٣٢، والمنتظم ٩/ ٧١، وتاريخ بغداد ١٦/ ٣٦٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ١٠٢١، والسير ٨/ ٥٣٥ والمصادر في هوامشه.

(٣) كذا ضبطه ابن خلكان في الوفيات ٦/ ٣٨٩، والعلامة الكوثري في حسن التقاضي ص٥.

(٤) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٩٧.

وقال أبو يوسُف: مات أبي وأنا صغير، فلمَّا ترعرعت، كنت أحضر حلقةَ أبي حنيفةَ فأسمعُ ما يقول، فكانت أمِّي تأخذ بيدي وتذهب بي إلى قصَّار أَسلمتني إليه، وكان أبو حنيفة يُعنَى بي لما يرى من حرصي على التعلُّم، فلمَّا كَثُرَ ذلك على أمِّي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبيِّ فسادٌ غيرك، هذا صبيٌّ يتيم لا شيءَ له، وأنا أُطعمه من مِغزل، وآمُل أن يكتسبَ دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبوحنيفة: هوذا يتعلَّم أكل الفالُوذجِ بدُهن الفُسْتُق، فانصرفت وقالت: أنت شيخٌ قد ذهب عقلُك.

قال: فلزمتُ أبا حنيفة، فنفعني اللهُ بالعلم ورفعني حتى تقلَّدت القضاء، كنت أجالس الرشيدَ وآكل معه على مائدته، فلمَّا كان في بعض الأيَّام، قدَّم إليَّ فالوذجةً وقال: كُل يا يعقوبُ منها، فليس كلَّ يوم يُعمل لنا مثلُها؛ فقلت: يا أميرَ المؤمنين، وما هذه؟ فقال: فالوذجةٌ بدُهن الفستق، فضحكتُ، فقال: ممَّ ضحكت؟ فقلت: خيراً، فألحَّ عليَّ، فأخبرته بالقصَّة، فعجب وقال: لَعمري إنَّ العلمَ يرفع وينفع في الدُّنيا والآخرة، يرحم اللهُ أبا حنيفةَ فلقد كان ينظر بعقله ما لا يراه بعين رأسِه.

وقال المُحَسِّن التَّنوخي[1]: كان سببُ اتِّصال أبي يوسفَ بالرشيد أنَّه قدم بغداد، فحَنِث بعض القوَّاد في يمينٍ، فطلب فقيهاً يستفتيه، فجيء بأبي يوسُف، فأفتاه فيها أنَّه لم يَحْنَث، فوهب له دنانير، وأَنزله بالقرب منه، فدخل القائدُ يوماً على الرَّشيد فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمِّه، فقال: شيءٌ من أمر الدِّين قد أَحزنني، فاطلبْ لي فقيهاً أَستفتيه، فجاءه بأبي يوسف.

قال أبو يوسف: فلمَّا دخلت إلى ممرٍّ ما بين الدُّور، رأيت فتًى حسناً عليه آثارُ الملك، وهو في حُجرةٍ محبوس، فأومأ إليَّ بإصبعه مستغيثاً، فلم أفهم إرادتَه، فأُدخلت إلى الرشيد، فلمَّا مثُلتُ بين يديه سلَّمت عليه، فقال: ما تقول في إمامٍ رأى رجلاً يزني هل يحدُّه؟ قلت: لا يجب ذلك، فحين قلتُها سجد الرَّشيد، فوقع أنَّه رأى بعضَ أهله على ذلك، وأنَّ الذي أشار هو الزَّاني.

ثمَّ قال الرشيد: ومن أين قلتَ هذا؟ قلت: من قول النبيِّ ﷺ «اِدرؤوا الحدود

(١) في نشوار المحاضرة ١/ ٢٥٢-٢٥٣، وعنه المنتظم ٩/ ٧٣.

بالشُّبهات»[١] وهذه شبهةٌ يسقط الحدُّ معها، فقال: وأيُّ شبهةٍ مع المعاينة؟ قلت: ليس توجب المعاينةُ لذلك أكثرَ من العلم بما جرى، والحدودُ لا تكون بالعلم، وليس لأحدٍ أخذُ حقِّه بعلمه، فسجد أُخرى وأمر لي بمالٍ جزيل، فلم أزل أترقَّى حتى ولَّاني القضاء.

وقال أبو يوسُف: مَنْ قال: إنَّ القرآنَ مخلوق، فحرامٌ كلامُه، وفرضٌ مباينتُه.

وخوصم موسى الهادي أميرُ المؤمنين إلى أبي يوسفَ في بستانٍ له، فكان الحكمُ في الظَّاهر للهادي، وكان الأمرُ على خلاف ذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الخصم سألني أن أحلِّف شهودَ أميرِ المؤمنين أنَّهم شهدوا على حقّ[٢]، فقال له: وترى ذلك؟ قال: كان ابنُ أبي ليلى يراه، قال الهادي: فأردُّ البستَانَ إليه. وإنَّما احتال أبو يوسفَ عليه.

وقال: ولِّيت هذا الحكمَ وانغمست فيه، وليس في قلبي منه شيءٌ، وأرجو ألَّا يسألَني اللهُ عزَّ وجلَّ عن جَور ولا ميلٍ منِّي إلى أحد، إلَّا يوماً واحداً، فإنَّ في قلبي منه بعضَ ما فيه. قيل: وما ذاك؟ قال: جاءني رجلٌ يوماً فقال: لي بستانٌ قد اغتصبني إيَّاه أميرُ المؤمنين.

فدخلتُ على أمير المؤمنين فأخبرتُه، فقال: هذا البستانُ اشتراه لي أبي المهدي، فقلت: إنْ رأيتَ أن تحضرَ بخصمك فأَسمعَ منكما الدَّعوى، قال: نعم. فدخل الرجل فادَّعى، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، ما تقول؟ فقال: البستانُ لي وفي يدي، فقلت للخصم: ما تقول؟ فقال: خذ لي يمينَه، فقلت: أتحلِف؟ قال: لا، فقلت: أَعرض عليك اليمين ثلاثاً، فإنْ حلفتَ وإلَّا حكمت عليك، فعرضتُها عليه ثلاثاً، فأبى أن يَحلف، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، قد حكمت عليك بردِّ البستان، قال: لا أسلِّمه،

---

(١) أخرجه أبو حنيفة في مسنده ص١٤٩ (٣١٦) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه الترمذي (٢٤ ١٤) من حديث عائشة ﷺ بلفظ «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ...» ورجح وقفه ثم قال: وقد روي نحو هذا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ذلك .اهـ. وانظر المقاصد الحسنة ص٧٤.

(٢) في أخبار القضاة ٣/ ٢٥٤، وتاريخ بغداد ١٦/ ٣٦٨، والمنتظم ٩/ ٧٦: أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق.

وأمر بالرجل فأُخرج. قال أبو يوسُف: فإني خائفٌ حيث لم أسألْه أن يقعدَ مع خصمه، أو يأذنَ لخصمه أن يقعدَ معه على السَّرير.

قال: بينا أنا قد أَويتُ إلى فراشي، وإذا بداقٍّ يدقُّ الباب دقّاً عنيفاً، فأزعجني ومَن عندي، فخرجت، فإذا هَرْثَمَةُ بن أَعيَن، فقال: أَجِب أميرَ المؤمنين، فقلت: أَمهِلْني حتى أغتسلَ وأتحنَّط وأتكفَّن؛ فما طلبني في هذا الوقتِ لخير. ففعلتُ وخرجت معه، فأتينا دارَ الخليفةِ ومسرورٌ قائم، فقال: أُدخل، فدخلت، وإذا به جالسٌ وعن يمينه عيسى بنُ جعفر، فسلَّمت، فردَّ وقال: أظنُّنا روَّعناك، قلت: إِي والله، ولمَن خلفي، قال: اِجلس، فجلستُ وسكن رَوْعي، ثم قال: أتدري لمَ دعوتك؟ فقلت: لا، قال: هذا ـ وأشار إلى عيسى بنِ جعفر ـ عنده جارية، وقد سألته أن يبيعَني إيَّاها أو يهبَها لي، واللهِ لئن لم يفعْل لأَقتلنَّه، فقلت لعيسى: وما قَدرُ جاريةٍ حتى تَمنعَها أميرَ المؤمنين؟ فقال: عجلتَ عليَّ بالقول قبل أن تعرفَ ما عندي، إنيِّ حلفت بالطلاق والعِتاق وصدقةِ ما أملك ألَّا أبيعَها ولا أهبَها، فقلت: تهبُ نصفَها وتبيع نصفَها، فتكون لم تبعْها ولم تهبْها، قال: أَوَ يجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فإنِّي أُشهدك أنِّي قد بعتُه نصفَها بمئة ألفِ دينارٍ ووهبته نصفَها، قلت: فتحضر الجارية، فحضرت وحضر المال، فقبضه عيسى وانصرف.

فقال لي الرَّشيد: يا يعقوب، هي مملوكةٌ ولا بدَّ أن تُستبرأ، ووالله لئن لم أَبِت ليلتي معها إنِّي لأظنُّ أنَّ نفْسي ستخرج، فقلت: أَعتقْها وتزوَّجها؛ فإنَّ الحرَّة لا تُستبرأ، قال: فإنِّي عتقتها، فمن يزوِّجني إيَّاها؟ فقلت: أنا. فدعا بمسرورٍ وحسين، وزوَّجته إيَّاها على عشرين ألفِ دينار، ودعا بالمال فدفعه إليها، وقال: انصرفْ، فانصرفت. فبعث في آثاري بمئتَي ألفِ درهمْ وعشرين تختاً[1] من الثِّياب، وبعثَتْ إليَّ الجاريةُ بعشرة آلافِ دينار، وقالت: واللهِ ما عندي غيرُها، والنصفُ الآخَر أصرفه فيما لا بدَّ لي، فقلت: أَخرجتُها من الرِّقِّ وزوَّجتها بأمير المؤمنين وتقابلني بمثل هذا؟! فلم تزل تشفع إليَّ حتى قبلتُها.

(١) وعاء تصان فيه الثياب.

وقال يحيى بن مَعين: كنت عند أبي يوسفَ وعنده جماعةٌ من أصحاب الحديثِ وغيرهم، فوافته هديةٌ من أمِّ جعفرٍ احتوت على تُخوت، دَبِيقيٍّ[١]، ومُصْمَت[٢]، وطِيب، وتماثيلَ نِدّ[٣]، وغيرِ ذلك. فذاكَرَني رجلٌ بحديث النبِّي ﷺ: «مَن أتته هديةٌ وعنده قومٌ جلوس، فهم شركاؤه فيها»[٤] فسمعه أبو يوسفَ فقال: أَبِي تُعرِّض؟ إنَّما قال النبيُّ ﷺ ذلك والهدايا الأَقِطُ والتمر والزَّبيب، لا ما ترون، ارفعه إلى الخزائن.

وقتل مسلمٌ ذمِّيًّا عمداً، فحبسه أبو يوسفَ ليُقيدَه به، فرُفعت إليه رقعةٌ مختومة فيها:

يا قاتلَ المسلمِ بالكافر ... جُرْتَ وما العادلُ كالجائرِ
يا مَن لبغدادَ وأقطارِها ... مِن علماء الناسِ أو شاعر
جَارَ على الدِّين أبو يوسفٍ ... بقتله المسلمَ بالكافر
فاسترجِعوا وابكوا جميعاً معاً ... واصطبروا فالحكمُ للصَّابر[٥]

فدخل على هارونَ وأخبره، فقال: اِذهب فاحتَلْ. فجلس أبو يوسف، وجاء وليُّ الدم وادَّعى وقامت البيِّنة، فقال لوليِّ الدم: أَقِم البينةَ عندي أنَّ صاحبك كان يؤدِّي الجزية، فلم يُقم بيِّنة، فامتنع القَوَد.

وحجَّ أبو يوسفَ معادلاً لهارون، فلمَّا دخل هارونُ الرشيد مكةَ صلَّى بالناس الظهرَ ركعتين، فلمَّا سلَّم قام أبو يوسفَ فقال: يا أهلَ مكَّة، أتمُّوا صلاتَكم فإنَّا قومٌ سَفْر، أشار إلى الحديث[٦]، فقال رجلٌ من أهل مكةَ كان معهم في الصَّلاة: نحن أفقهُ من أن نُعلَّم مثلَ هذا، فقال له أبو يوسف: يا ابنَ أخي، لو كنت فقيهاً لما تكلَّمت في صلاتك.

---

(١) من دِقِّ ثياب مصر، تنسب إلى دبيق وهي بلد في مصر. انظر اللسان والقاموس (دبق).

(٢) الثوب المصمت: لا يخالط لونه لون. القاموس المحيط (صمت).

(٣) ضرب من الطيب يدخَّن به. اللسان (ندد).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٢) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٤٨: فيه يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف. وأخرجه في الأوسط (٢٤٥٠)، والكبير (١١١٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي: فيه مندل بن علي، وهو ضعيف وقد وثق.

(٥) نسب الأبيات صاحب تاريخ بغداد ١٦/ ٣٧٣ لأبي المضرحي شاعرٍ ببغداد.

(٦) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير (٥١٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. وهو عند أبي داود (١٢٢٩) بلفظ: «يا أهل البلد، صلوا أربعاً فإنا قوم سفر».

فطرب هارونُ وقال: ما يسُرُّني بها حُمْرُ النَّعم، ولم يُعِدْ في معادلته للرشيد حكايةً ولا خبراً، ولا وصل إلى مكانٍ إلَّا وأخبره باسمه.

وصل كتابٌ من بعض الأطرافِ أنَّ قاضياً اختصمت إليه جاريتان في جرَّتين، استقتا ماءً من تُرعةٍ ثم جلستا تستريحان، فسقطت إحدى الجرَّتين على الأخرى، فانكسرتا، فادَّعت كلُّ واحدةٍ أنَّ جرَّة الأخرى انكسرت، فلم يكن عند القاضي علمٌ من ذلك، فقال للقيِّم: اذهب واشترِ لهما جرَّتين وأَرِحني منهما.

ثم قال القاضي لصاحبٍ له بعد أيَّام: ما يقول الناس؟ قال: يقولون: إنَّ القاضي لا يُحسن أن يحكمَ في جرَّتين حتى غَرِمهما، فقال: سبحانَ الله! أَلَا ترضَون مني أن أحكمَ فيما أُحسن وأَغرمَ فيما لا أحسن. فقال هارونُ لأبي يوسف: ما تقول فيه؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا رجلٌ عاقل، فزِدْه في رِزقه لأجل الغرامات، فزاده في كلِّ شهرٍ ألفَ درهم.

وكان يجلس إلى أبي يوسفَ رجلٌ فيطيل الصَّمت، فقال له: ألا تتكلَّم؟ فقال: متى يُفطر الصائم؟ قال أبو يوسُف: إذا غابت الشَّمس، قال: فإن لم تَغِب إلى نصف الليل، فضحك أبو يُوسُف وقال: أصبتَ في صمتك، وأخطأتُ أنا في استدعاءِ نُطْقِك، وأنشد: [من الطويل]

عجبتُ لإزراء العَييِّ بنفسه ... وصمتِ الذي قد كان بالقول أَعلَما
وفي الصَّمت سترٌ للعييِّ وإنَّما ... صحيفةُ لُبِّ المرء أنْ يتكلَّما[1]

وقال أبو يوسف: ثلاثةٌ لا يَسلَمون من ثلاثة: مَن طلب النجومَ لم يسلمْ من الزَّندقة، ومن طلب غرائبَ الحديثِ لم يسلم من الكذب، ومن طلب الكيمياءَ لم يسلم من الفقر.

وكان يكتب كتاباً وعنده رجل، فتطلَّع فيه، فلمَّا فرغ منه أبو يوسفَ قال للرجل: فيه خطأ؟ قال: لا ولا حرف، قال: كفيتنا مَؤونةَ النظرِ فيه، ثم أنشد: [من السريع]

---

(١) تاريخ بغداد ١٦/ ٣٦٦، والبيتان للخطفى جد جرير كما في أخبار القضاة ٣/ ٢٦٤، والتذكرة الحمدونية ١/ ٣٦٥ و ٣/ ٣٤٨-٣٤٩، ومعجم الأدباء ١/ ٩٠، والتذكرة السعدية ص٢٥١-٢٥٢، ونسبهما صاحب العقد الفريد ٢/ ٢٦٦ للحسن بن جعفر.

كـــأنَّـــه مـــن ســـوءِ تـــأديـــبـــهِ أســلــم فــي كُــتَّــاب ســوءِ الأدبْ[١]

ووقف على المزنيِّ رجلٌ فقال: ما تقول في أبي حنيفة؟ فقال: سيِّد أهلِ العراق، قال: فأبو يوسفْ؟ قال: أتبعُهم للحديث، قال: فمحمَّد بن الحسن؟ قال: أشدُّهم تفريعاً، قال: فزُفَر؟ قال: أحدُّهم قياساً.

ذِكر وفاته:

قال أبو يوسف: صحبتُ أبا حنيفةَ سبعَ عشرةَ سنةً، ثم انصبَّت عليَّ الدنيا سبعَ عشرةَ سنة، فما أظنُّ أجلي إلَّا قد قَرُب. فما كان إلَّا القليلُ حتى مات.

وقال عند موتِه: يا ليتني لم أَدخلْ في القضاء، حتى إنِّي بحمد اللهِ ما تعمَّدت جَوراً، ولا حابيتُ خصماً على خصم، من سلطانٍ أو سُوقة. اللهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أَجُرْ في حكمٍ حكمتُ به بين عبادك متعمِّداً، ولقد اجتهدتُ في الأحكام بما يوافق كتابَك وسنَّةَ نبيِّك ﷺ، وما أَشكل عليَّ جعلتُ أبا حنيفةَ فيه بيني وبينك، وكان أبو حنيفة ممَّن يعرف أمرَك ولا يخرج عن حكمك، اللَّهم إنَّك تعلم أني لم أطأْ فرجاً حراماً، ولم آكل درهماً حراماً.

وكان يومُ جنازتِه يوماً مشهوداً لم يتخلَّف عنه من أهل بغدادَ خاصٌّ ولا عامّ، ودُفن بمقابر قريش، وسنُّه تسعٌ وستُّون سنة. وقيل: إنَّه مات سنةَ إحدى أو اثنتين وثمانين ومئة. وقال عبَّاد بن العَوَّام: ينبغي لأهل الإسلام أن يُعَزِّي بعضُهم بعضاً في أبي يوسف.

وبعث معروفٌ الكرخيُّ مع عبد الرَّحمن القوَّاس[٢] يسأل عن مرض أبي يوسف، فوافى جنازتَه وهي خارجة، فمشى معها حتى دُفن، ثم عاد فأَخبر معروفاً، فاشتدَّ حزنُه عليه، فسأله عن ذلك، فقال معروف: رأيتُ في المنام كأنِّي دخلت الجنَّة، فإذا بقصرٍ عظيم، ووصف من حُسنه، فقال: قلت: لمَن هذا؟ فقيل: لأبي يوسفَ القاضي، قلت: وبمَ ذاك؟ قال: بتعليمه الناسَ الخيرَ وحرصِه عليه، وبأذى الناسِ له.

وقال محمَّد بن سَمَاعة: شهدت جنازتَه ـ أي جنازةَ أبي يوسف ـ فسمع الناسُ قائلاً

---

(١) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص٩٤، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٨٣.

(٢) كذا في (خ) وحسن التقاضي ص٩٠، وفي تاريخ بغداد ١٦/ ٣٨١: عبد الرحيم القواس.

يقول: [من السريع]

يا ناعيَ الفقهِ إلى أهله ... أنْ مات يعقوبُ وما تدري
لم يمت الفقهُ ولكنَّه ... حُوِّل من صدرٍ إلى صدر
ألقاه يعقوب إلى يوسفٍ ... فزال من طُهرٍ[1] إلى طهر
فهو مقيمٌ فإذا ما ثوى ... حلَّ وحلَّ الفقهُ[2] في قبر

قال المصنِّف رحمه الله: هذا الشِّعرُ لإسحاقَ بن حسانَ بن قوهي، وأصلُهُ من الشَّاهجان[3]، قدم العراق، وكان شاعراً سهلَ المأخذِ حلوَ المنطق، قيل له: ما بالُ شعرِك لا يسمعه أحدٌ إلَّا استحسنه وقَبِله طَبْعُه؟ فقال: لأنِّي [لا] أجاذِبُ الكلامَ إلَّا أن يُساهِلَني عَفْواً، فمَن سمعه سَهُل عليه استحسانُه.

فمن شِعره في مرثيَّة في ولده[4]: [من الطويل]

ولو شئتُ أن أبكيْ دماً لبكيتُهُ ... عليه ولكنْ ساحةُ الصَّبرِ أوسعُ
وأَعددْتُهُ ذُخراً لكلِّ عظيمةٍ ... وسهمُ المنايا بالذَّخائر مولَع
وإنِّي وإنْ أَظهرتُ منِّي جَلادةً ... وصانعتُ أعدائي عليك لَموجَع

وله فيه: [من الطويل]

أعاذلُ كم من مؤنسٍ[5] قد رُزِئْتُه ... وفارقني شخصٌ عليَّ كريمُ
أرى الصبرَ منِّي جَمرةً مُستكنَّة ... لها لَهَبٌ في القلب ليس يَرِيمُ
وآثارُه في البيت حيث توجَّهَتْ ... بيَ العينُ حُزنٌ في الفؤاد مُقيم
خططتُ له في التُّرب بيتَ إقامةٍ ... إلى الحشر فيه والنشورِ مقيم

(١) كذا في (خ) وحسن التقاضي ص٩١، وفي باقي المصادر: من طيب، انظر الحاشية التالية

(٢) في (خ): وحل القبر، والمثبت من أخبار القضاة ٣/ ٢٥٧، وأخبار أبي حنيفة وأصحابه ص١٠١، وتاريخ بغداد ١٦/ ٤٣٥، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٨٩، وتاريخ دمشق ٢/ ٧٥٠ (مخطوطة دار البشير).

(٣) في تاريخ دمشق ٢/ ٧٤٩ (مخطوط): مرو الشاهجان.

(٤) قال ابن عساكر في تاريخه ٢/ ٧٥١: هي في مولاه خريم بن عامر بن عمارة لا في ابنه .اهـ. وذكر الأبيات أيضاً أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ٢/ ١٧٥، وابن حمدون في تذكرته ٤/ ٢٦٠. وقال أبو علي القالي في ذيل الأمالي ص١٢٠: وأنشدنا الزبير لأعرابي... ثم ذكر الأبيات.

(٥) في تاريخ دمشق ٢/ ٧٥١ (مخطوط): منفس. والقصيدة فيه أطول مما هنا.

وكان سروراً لم يَدُم لي وغبطةً ... وأيُّ سرورٍ في الحياةِ يدوم
على حينَ فارقتُ الشبابَ وقارَبَتْ ... خُطاي قيودَ الشَّيب حين أقوم
وفارقتُ حلوَ العيش إلَّا صَبابةً ... عليها خطوبُ الحادثاتِ تحوم
أَلَا كلُّ عيشٍ بعد فُرقة أحمدٍ ... وكلُّ سرورٍ ما حَيِيتُ ذَميم
فهل كان يعقوبُ النبيُّ بحُزنه ... مُليماً وما يُزري عليه[1] حكيم
كوى قلبَه حزنٌ كأنَّ لهيبَه ... توقُّد نيرانٍ لهنَّ ضَريم
فما عيَّر اللهُ النبيَّ بحزنه ... أبى ذاك ربُّ العالمين رحيم
فلولا رجاءُ الأجرِ فيك وأنَّه ... ثوابٌ وإنْ عزَّ المُصاب عظيم
وأنَّك قربانٌ لدى اللهِ نافعٌ ... وحظٌّ لنا يومَ الحسابِ جسيم
لأضعف حزني يا بُنيَّ وأوشَكَتْ ... عليَّ البواكي بالرَّنين تقوم

سمع أبو يوسفَ يحيى بنَ سعيدٍ وسليمانَ الأعمشَ وهشاماً وغيرَهم، وروى عنه محمَّد بن الحسن وبِشر بن الوليد والإمامُ أحمدُ رحمة اللهِ عليه وغيرُه.

وقال طلحةُ بن محمَّد بن جعفر: وأبو يوسفَ مشهورُ الأمرِ ظاهرُ الفضل، وهو صاحبُ أبي حنيفة، وأفقهُ أهلِ عصره، ولم يتقدَّمه أحدٌ في زمانه، وكان النهايةَ في العلم والحُكم والرِّئاسة و القَدر، وأوَّل مَن وضع الكتبَ في أصول الفقهِ على مذهب أبي حنيفةَ في أقطار الأرض، وكان صاحبَ سنَّة.

يزيد بن زُرَيْع

أبو معاويةَ العَيْشيّ، من بكر بنِ وائل. من الطبقة السادسةِ من أهل البصرة. كان ثقةً، كثيرَ الحديث، عالماً، فاضلاً، صدوقاً.

كان أبوه واليَ البصرة، مات فلم يأخذْ من ميراثه شيئاً؛ قال [أبو[2]] سليمانَ الأشقر: تنزَّه يزيدُ بن زُريع عن خمس مئةِ ألف درهمٍ من ميراث أبيه لم يأخذْ منها درهماً. وكان يتقوَّت من سَفِّ الخُوصِ بيده.

---

(١) في تاريخ دمشق: علي.

(٢) زيادة من المنتظم ٩/ ٨٢.

وكان الإمام أحمدُ رحمةُ الله عليه يُثني عليه ويقول: تنزَّه عن مال أبيه زُريع، وما أتقنَه وأحفظَه وأصدقَه.

سمع من أيوبَ السَّخْتيانيِّ[١] وابنِ أبي العَروبة وغيرِهما.

قال ابنُ سعد: توفِّي بالبصرة في شوَّال سنةَ اثنتين وثمانين[٢]. وقيل: سنةَ سبعٍ وسبعين ومئة.

يعقوبُ بن داود

ابن عمرَ بن طَهْمان، أبو عبدِ الله، مولى عبدِ الله بن خازمٍ السُّلمي.

قال: حبسني المهديُّ في بئر، وبُنيت علي قُبَّة، فمكثت فيها خمسَ عشرةَ سنة، وكان يُدلَى إليَّ كلَّ يوم رغيفٌ وكوزُ ماء، وأُوذَن بأوقات الصَّلاة، فلمَّا كان في رأس ثلاثَ عشرةَ حِجَّة، أتاني آتٍ في منامي فقال: [من البسيط]

حنا على يوسفٍ ربٌّ فأخرجهُ ... من قعرِ جُبٍّ وبيتٍ حوله غُمَمُ[٣]

قال: فحمدت اللهَ وقلت: أتاني الفَرَج، فمكثتُ حولاً لا أرى شيئاً، فلمَّا كان رأسُ الحولِ، أتاني ذلك الآتي فقال: [من الوافر]

عسى الهمُّ الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فَرَجٌ قريبُ

فيأمنَ خائفٌ ويُفكَّ عانٍ ... ويأتي أهلَه النائي الغريب

أَلَا ليت الرِّياحَ مُسَخَّراتٌ ... لحاجتنا تُبَكِّر أو تؤوب

فتُخبِرَنا الشَّمال إذا أتتنا ... وتُخبِر أهلَنا عنَّا الجَنوب[٤]

فلمَّا أصبحتُ نوديت، فظننت أنِّي أُوذن بالصلاة، فدُلِّيَ[٥] لي حبلٌ أسود، وقيل لي: أُشدد به وسطَك، ففعلت، فأخرجوني، فلما تأمَّلت الضوءَ عشا بصري، فانطلقوا بي فأدخلوني على الخليفة، فقالوا: سلِّم على أميرِ المؤمنين، فقلت: السلامُ عليك يا

(١) في (خ): السجستاني، وهو خطأ، انظر تهذيب الكمال (٧٥٨٢)، وتاريخ الإسلام ٤/ ١٠٠٥.

(٢) الطبقات ٩/ ٢٩٠.

(٣) الفرج بعد الشدة ٢/ ٢٣٤، وتاريخ بغداد ١٦/ ٣٨٥، والمنتظم ٩/ ٨١.

(٤) الأبيات من قصيدة لهدبة بن خشرم في أمالي القالي ١/ ٧١، والبيتان الأولان في المصادر السابقة.

(٥) في(خ): فدخل، وهو تحريف، والمثبت من المصادر.

أميرَ المؤمنين المهديّ، فقال: لستُ به، فقلت: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين الهادي، قال: لستُ به، قلت: الرَّشيد؟ قال: نعم يا يعقوب، إنَّه واللهِ ما شفع فيك إليَّ أحد، غيرَ أني حَملتُ الليلةَ صبيةً لي على عنقي، فذكرتُ حملَك إيَّاي على عنقك، فرثيتُ لك من المحلِّ الذي كنتَ فيه فأخرجتُك. ثم أكرمني وقرَّب مجلسي.

ثم إنَّ يحيى بن خالدٍ تنكَّر لي، كأنَّه خاف أن أَغلبَ على الرَّشيد دونه، فخفتُه، فاستأذنتُ في الحجّ، فأذن لي.

قال ابنهُ عبد الله بن يعقوب: فلم يزل مقيماً بمكَّة حتى مات سنةَ اثنتين وثمانين ومئة.

وقيل: إنَّ المهديَّ سلَّم مفتاحَ البيتِ الذي كان فيه يعقوبُ محبوساً إلى خادمٍ له، وأَوصاه ألَّا يُقرَّ لأحدٍ أنَّه في الحياة، فلمَّا ذكره الرشيدُ سأل عنه، فدُلَّ على الخادم، فأَحضره وسأله عن يعقوب، فأَنكره، فضربه بالمَقارع، فأَقرّ، فأُخرج من المَطْمورةِ وهو أعمى.

ذِكر طرفٍ من أخباره:

كان داودُ أبو يعقوبَ وولدُه كتَّاباً لنصر بنِ سيَّار، فلمَّا قُتل يحيى[1] وظهر بعد ذلك أبو مسلمٍ الخُراساني، جاءه داودُ مطمئناً إليه، فأَمَّنه أبو مسلمٍ على نفسه، ثم أخذ أموالهَ وعقارَه وما استفاده من نصرِ بن سيار.

ثم مات داود، فنظر يعقوبُ وإخوتُه فلم يجدوا لهم عند بني العبَّاس مكانة، فالتجؤوا إلى آلِ أبي طالب. فكان يعقوبُ يتقلَّب في الأمصار، تارةً مع إبراهيمَ بن عبدِ الله بن حسن، وتارةً مع محمَّد بن عبدِ الله بن حسنٍ، يأخذ البيعةَ لهما، فلمَّا ظهر محمَّد على المدينة واستولى عليها، كتب عليُّ بن داود ـ وكان أسنَّ من يعقوب ـ لإبراهيمَ بن عبد الله، فلمَّا قُتل محمَّد وإبراهيم، جدَّ أبو جعفرٍ في طلب آلِ داود، فأُخذ يعقوبُ وعليٌّ ابنا داودَ فحُمِلا إليه، فحبسهما في المُطْبق أيامَ خلافته، فلمَّا وَلِي المهديُّ مَنَّ عليهما وأَطلقهما، وكان معهما في الحبس إسحاقُ بن الفضل بنِ عبد الرَّحمن الهاشميّ، وكان إسحاقُ يقول: إنَّ الخلافةَ في صالحي بني هاشم، وهي للأكبرِ من ولد عبد المطَّلب، وإنَّه أحقُّ بها من المهديّ، فحبسه.

---

(١) هو يحيى بن زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه. انظر تاريخ الطبري ٨/ ١٥٤، وتاريخ الإسلام ٤/ ٢٧٧.

وكان الحسنُ بن إبراهيمَ بنِ عبد الله وعيسى بنُ زيدٍ قد هربا من المهديِّ ويطلبهما، فقال المهديّ: لو وجدتُ مَن يدخل بيني وبينهما، فقيل له: هذا يعقوبُ بن داود خصيصٌ بآل أبي طالب، فاستدعاه فكلَّمه، فرآه كاملاً، فسأله عن [الحسن] بن[1] إبراهيمَ وعيسى، فوعده أن يدخلَ بينهما، وقال: عَدِّ عن ذِكرهما فإنَّهما قد خافاك. فاستوزره المهديُّ وفوَّض إليه أمورَه، وحجَّ المهدي، فتلطَّف يعقوبُ حتى جمع بينه وبين الحسنِ بن إبراهيم، فسُرَّ به وأعطاه مالاً وأقطعه قطائع.

وقيل: إنَّه حبسه بعد ذلك، وبعث يعقوبُ إلى الزَّيدية، فجاؤوه من الأقطار، فولَّاهم الولاياتِ الجليلة، وكان قد غلب على المهديِّ بحيث إنَّه خلَّد في الدواوين توقيعٌ باسمه فيه أنَّه أخو أميرِ المؤمنين، فلمَّا استولى يعقوبُ وجمع الزيديةَ وولَّاهم الدُّنيا، حسده الموالي وشنَّعوا عليه عند المهديِّ وغيَّروه عليه، وكان لمَّا سلَّم الحسنَ ابن إبراهيم إلى المهدي، تغيَّرت عليه الزيديةُ وقالوا: إنَّما فعل ذلك تقرُّباً إلى المهديّ، وكثرت عليه الشَّناعاتُ أنَّه يريد أن يولِّي الخلافةَ إسحاقَ بن الفضل الهاشميّ، وقيل للمهدي: لا تأمنْ أن تثورَ الناسُ عليك في ساعةٍ واحدة.

ودخل يعقوبُ يوماً على المهديِّ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك أمرتني أن ألتمسَ لك رجلاً تولِّيه مصر، وما أرى غيرَ إسحاقَ بن الفضل، فتغيَّر وجهُ المهدي، وقام يعقوبُ فخرج، فأتبعه المهديُّ بصرَه وقال: قتلني اللهُ إن لم أقتلْك. وما زال الموالي يسعَون به إلى المهديِّ حتى نكبه.

وكان المهديُّ قد بنى قصراً بعيساباذَ أنفق عليه خمسين ألفَ ألفِ درهم، فقال يعقوب: أتلفَ هذه الجملةَ من بيت المالِ لا لفائدةٍ إلَّا اللَّعب[2]. وبلغ المهديَّ فازداد حَنَقاً.

وقيل: إنَّ يعقوبَ أنكر على المهدي [، وكان المهدي] لا يشرب النبيذَ لأنَّ مزاجَه لم يكن يقبله، فكان يُحضر النُّدماء فيشربون بين يديه، فقال يعقوب: ما على هذا وَزَرتُ لك، أبعدَ الصلواتِ الخمسِ في المساجد وقراءةِ القرآن يُشرب النبيذُ بين

(١) زيادة من تاريخ الطبري ٨/ ١٥٦.

(٢) في الطبري ٨/ ١٥٧ أن قائل ذلك أحمد بن إسماعيل بن علي، وأن المهدي نسي ذلك وظن القائل يعقوب.

يديك؟! فحقد عليه، فقال بعضُ الموالي: [من الطويل]

فـدعْ قـولَ يـعـقـوب بـن داودَ جـانـبـاً وأَقـبِـلْ عـلـى صَـهـبـاءَ طـيِّـبـةِ الـنَّـشـرِ[1]

والأصحُّ أنَّ سببَ نكبته ميلُه إلى آل أبي طالب. وقال أبو اليقظان: إنَّ المهديَّ جلس يوماً في مجلسٍ وفرش فيه الفُرُش والآلاتِ والأواني والجواهر مالم يُرَ مثلُه، وأحضر جاريةً فائقةَ الجمال، فقال: يايعقوب، ما تقولُ في هذا المجلس؟ فقال: أَمتعَ اللهُ أميرَ المؤمنين، فقال: هو لك بما فيه.

ثم قال له: لي إليك حاجةٌ وأنا أحبُّ أن تقضيَها، قال يعقوب: أنا عبدُ أمير المؤمنين، قال: تقوم تضع يَدك على رأسي وتحلف أنَّك تقضيها. ففعل ما أَمره به المهديُّ واستوثق منه، فأَخرج إليه شابّاً من ولد آلِ أبي طالبٍ وقال: هذا تريحني منه عاجلاً[2]، وأمر له بمئة ألفِ درهم.

قال يعقوب: فقمتُ وقد حمل معي ما كان في المجلس والمالِ وأتيتُ منزلي، ومن شَغَفي بالجارية تركتها في مِخدعٍ لأفرغَ من العلويّ وأعودَ إليها. قال: وجلست على كرسيٍّ وأحضرت السيفَ والنَّطع، فقال لي العلويُّ: يا يعقوب، اللهَ اللهَ في دمي؛ فإنَّ جدِّي رسولُ الله ﷺ، وعليٌّ أبي، وفاطمةُ أمِّي، وهما خصماؤك يومَ القيامة. فوقفتُ عليه وبكيت، وقلت: لا تخف، أيُّ الطرق أحبُّ إليك؟ فقال: الطريقُ الفلاني. وأحضرتُ جماعةً ممَّن أثق منهم وأعطيتُهُ من ذلك المال، وواعد أولئك الجماعةَ مكاناً يلتقي بهم فيه.

قال: وإذا الجاريةُ تسمع ما أقول ولم أعلم، فبعَثَتْ خادماً إلى المهديِّ فأَخبره، فأرسل جماعةً في الليل إلى ذلك المكانِ فأخذ العلويَّ والذين معه والمال، ثم استدعاني في الحال، وقال: ما فعل الرَّجل؟ فقلت: قد أراحك اللهُ منه، فقال: أُنظر ما تقول، فقلت: نعم، فقال: ضع يدَك على رأسي واحلف، ففعلت، وإذا قد فُتح بابٌ

(١) تاريخ الطبري ٨/ ١٦٠، ومابين حاصرتين منه، الكامل ٦/ ٧٢-٧٣، تاريخ الإسلام ٤/ ٢٧٩، البداية والنهاية ١٣/ ٥٢٩-٥٣٠.

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية ١٣/ ٥٢٨: والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأُخرج منه العلويُّ والرِّجال والمال، فأُسقط في يدي، فقال: قد أباح اللهُ لي دمَك، ولكن لا أُريقه، إلَّا أنني أَحبسك حبسَ الأبد، فحفر لي في المُطْبَق بئراً وأُلقيت فيها، وأقمتُ مدَّة لا أدري ما الناسُ فيه، وذهب بصري.

وبلغ المهديَّ أنَّ إسحاقَ بن الفضل بنِ عبد الرَّحمن الهاشميَّ يقول: أنا أحقُّ بالخلافة من المهديّ، فاستدعاه المهديُّ من المطبق وقال: تزعم أنَّكم الكُبْرُ من ولد عبدِ المطلب لأنَّ أباكم الحارثَ كان أكبرَ ولد عبدِ المطلب، فقال: إنْ صحَّ هذا عنِّي فاقتلني، فقال: حكاه لي عنك يعقوبُ بن داود. قال إسحاق: وقد بلغني أنَّ يعقوبَ قُتل في الحبس، فقلت: إنْ قال يعقوبُ هذا عنِّي فاقتلني، فأُحضر يعقوبُ في الحال، فلمَّا رأيته مقيَّداً مكبَّلاً بالحديد أَيقنت بالقتل، ولم أشكَّ أن يَبهتني لعله يَخلص. فقال له: يا يعقوب، ألستَ القائلَ عن إسحاق كذا وكذا؟ قال: لا واللهِ ما قلت قطّ، قال: بلى، قال: لا والله، فغضب المهديّ، فقال يعقوب: يا أميرَ المؤمنين، الأمرُ على خلاف هذا، أَتذكر يومَ شاورتَني مَن تولِّي مصرَ فأشرتُ عليك بإسحاقَ فقلتَ: ذاك يزعم أنَّه أَولَى بالخلافة مني. وقد كان مباركٌ التركيُّ حاضراً، فسأله فتذكَّر المهديُّ ذلك، فقال: صدقت.

وأقبل المهديُّ على يعقوبَ يوبِّخه ويعدِّد أفعالهَ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أُذكر إذ أعطيتَني عهدَ اللهِ وميثاقَه وذمَّةَ الله ورسولهِ وذمةَ آبائك أنَّك لا تؤذيني ولا تحبسني ولو قتلتُ موسى وهارون، فقال: يا يعقوب، قال: لبَّيك يا أمير المؤمنين تلبيةَ مَكروبٍ لمَوْجِدَتِك، [قال:] أَلم أرفعْ من قَدرك إذ كنتَ وضيعاً؟ وأنوِّه بِذكرك إذ كنت خاملاً؟ فقال: إنْ كانت عقوبتي منك فبذنب مُعْتَرِف، وإن كانت من تخرُّص الوُشاة فالعبدُ عائذٌ بفضل مولاه، فقال: لولا سابقُ خدمتِك لأَلبستُك قميصاً من دمك لا تشدُّ عليه زِراً. ثم أَمر بإِعادته إلى حبسه، فانصرف وهو يقول: الوفاءُ كرم، والمودَّة رَحِم، وأنت يا أميرَ المؤمنين بهما جدير[1].

وقيل: إنَّه قال له: يا يعقوب، أَلم تُخبرني أنَّ هذا وأهل بيته يزعمون أنَّهم أحقُّ

(١) العقد الفريد ٢/ ١٤٧ـ١٤٨، وما بين حاصرتين منه.

بالخلافة منا؟ فقال: لا واللهِ ما قلتُه، فقال: أتكذِّبني؟! وأمر بضربه فضُرب اثني عشر سَوطاً، ثم قال المهديُّ لإسحاق: ما تقول أنت؟ قال: كيف أقولُ هذا وقد مات جدِّي في الجاهلية كافراً وأبوك الباقي بعد رسولِ الله ﷺ وهو وارثُه، فقال له المهديّ: صدقت. وأَطلقه وردَّ يعقوبَ إلى محبسه.

وكان يعقوبُ سَمْحاً جواداً، كثيرَ البِرِّ والصَّدقة واصطناعِ المعروف؛ جاءت امرأةٌ من اليمامة جَعْدِيَّةٌ مملوكةٌ لبني جعدةَ يقال لها: وحشية، قد كاتبت على ولدها وأختِها وأهلِ بيتها بألف دينار، فوقَفَت بين يدي يعقوبَ بنِ داود وقالت: [من الوافر]

أَمَا ومعلِّمِ التوراةِ موسى ... ومُرسي البيتِ في حَرَم الإلالِ[1]
وباعثِ أحمدٍ فينا رسولاً ... يعلِّمنا الحرامَ من الحلال
لَشهراً نحو يعقوبٍ سَرَيْنا ... فأدَّاني له وقتَ الهلال
أَغِثْني يا فداك أبي وأمِّي ... وعمِّي لا أُحاشيه وخالي
يُبَشِّرني بنُجحي كلُّ طيرٍ ... جَرَتَ لي عن يميني أو شِمالي

فقال يعقوب: صَدَقَت طيرُك، وأعطاها ألفَ دينار وقال: اِذهبي فاشتري أهلَك وولدَك وأَقدِميهم عليّ، ففَعَلَت، فما زالت في عيال يعقوبَ هي وأهلُها حتى ماتت. وكان يعقوبُ ممدَّحاً، مدحه سَلْمٌ[2] الخاسر وأبو الشِّيص وأبو حَنَش وغيرُهم.

(١) في (خ): الآل، والمثبت من تاريخ بغداد ١٦/ ٣٨٤: الإلال: العهود، واحدها إل.

(٢) في (خ): سالم، وهو خطأ، وانظر تاريخ بغداد ١٦/ ٣٨٤، والقاموس المحيط (خسر).